مكافأة السماء

عبد الله بن حرام

رضي الله عنه

اصدق النية واجتهد .. ثم انتظر مكافأة السماء

لم يكن الحج هذه المرة حجا عاديا..

ولم تكن الرحلة التي يقطعها عبد الله بن عمرو بن حرام من يثرب إلى مكة تشبه رحلة كل عام..

فلأول مرة يكون بصحبة وفد الحجيج خمسة وسبعون من المسلمين جاؤوا ليحجوا إلى مكة.

ولأول مرة ينقسم وفد الحجيج إلى مسلمين وغير مسلمين ويدور الحوار بينهم.

هذا ما عرفه عبد الله بن عمرو من أسباب اختلاف الرحلة...

إلا أن ما لا يعرفه كان أخطر..

أخطر بكثير..و

« يا أبا جابر، والله إني عجبت لك، وإني أخشى أن تكون غدا حطبا للنار، وإنك والله سيدنا وعظيمنا وصاحب خلق فينا، وأحب الناس إلينا ».

نطق بها في أدب جم كعب بن مالك في حواره مع عبد الله بن عمرو بن حرام وهما في طريقهما إلى مكة، وقد لفتت طريقة الحوار انتباه عبد الله بن عمرو بشدة، مما دفعه أن يقول له في دهشة:

- ما الأمر يا كعب؟

ورأى كعب الفرصة سانحة لأن يعرض عليه الإسلام..

وبعد حوار قصير.. كان عبد الله بن عمرو بن حرام وهو من علية القوم في المدينة، قد أصبح في عداد المسلمين.

وربما كان هذا التغير يعد مفاجأة لعبد الله بن عمرو.. إلا أن مفاجآت الرحلة لم تكن قد انتهت بعد...

ففي اليوم قبل الأخير من الحج، كان «كعب بن مالك» يخبر عبد الله بأنهم سيقابلون رسول الله ﷺ غدا.. وسيكون معهما كل المسلمين الذين أتوا معهما من يثرب..وأن هذا الاجتماع سيكون في منتصف الليل عند العقبة، وهو محاط بكل أنواع السرية..

وكان عبد الله يستمع إلى كعب بن مالك، بينما عشرات الأسئلة تدق في رأسه..

بلا إجابة.

* * *

لم يكن كلام كعب بن مالك مثيرا للخوف عند عبد الله بن عمرو، وهوالذي أسلم منذ أيام، ليفاجأ باجتماع سري خطير في وسط مكة وفي منتصف الليل.

بل كان مثيرا لفضوله..

فهو كواحد من أسياد يثرب وزعمائها، كان على شوق أن يرى ذلك الرجل الـذي نجـح في أن يأتي بأناس من مسافة خمسمائة كيلو متر ليقابلوه في منتصف الليل ..

ولقد أتته الفرصة..

وحان وقت الاجتماع..

ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان يجلسون في صمت رهيب وعيونهم تضرب الطريق في كـل اتجـاه خشية أن يراهم أحد..

ويجلس عبد الله بن عمرو بن حرام ينظر للأمام ينتظر رؤية القائد والنبي العظيم ﷺ..

وما هي إلا دقائق حتى يأتي رجلان يسيران على مهل..

وينظر عبد الله لا يعرف أيهما الرسول ﷺ..

وبشيء من القلق وبعين تحدق في عيون الأنصار وكأنها تريد أن تكشف ما بداخلهم ، يتحـدث أحدهما يعرف بعدها عبد الله أنه ليس النبي ﷺ..

لقد كان العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ..

وبينما يفتتح العباس الاجتماع افتتاحا ساخنا يشد الأعصاب ويوضح الأمور، كان عبـد الله بـن عمرو ينصت إلى الحديث ويـتأمل كلمات ومقاصد العباس الذي بدأ الاجتماع قائلا:

– يا معشر الخزرج، إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا فهـو في عـز مـن قومـه ومنعة في بلده، وإنه أبى إلا الانحياز إليكم واللحاق بكم..

فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممـن خالفـه، فـأنتم ومـا تحملـتم مـن ذلك.. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم، فمن الآن فدعوه.

كلام في منتهى الخطورة والوضوح لا يحتمل تأويلا ولا يصلح أن يرد عليه بحماسة.

أنتم قادمون على مهمة صعبة وخطيرة، ستتسلمون منا مهمة حماية النبي ﷺ..

فهل أنتم قادرون عليها أم لا؟

ويتابع العباس حديثه الساخن الخطير، ملفتا النظـر إلى أن الأمـر سيـصل حـتما إلى المواجهـات العسكرية، فتابع في حزم:

– صفوا لي الحرب، كيف تقاتلون عدوكم؟

ولكن المفاجآت لم تنته بعد..

فالذي يطلب الرد على العباس رجل عمر إسلامه أيام قصيرة..

إنه عبد الله بن عمرو بن حرام..

وصلته الرسالة واستوعبها وفهمها وأثلج صدر العباس بالرد:

نحن، والله أهل الحرب.. غذينا بها، ومرنا عليها، وورثناها عن آبائنا كابرا فكابر..

نرمي بالنبل حتى تفنى..

ثم نطاعن بالرماح حتى تنكسر..

ثم نمشي بالسيوف، فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا.

كانت الكلمات تكشف عن زعيم بحق..

رجل شجاع، لا يخشى المفاجآت ويتفهم الأمور بسرعة ويرتب أفكاره في وقت قصير ليحدد موقفه.

ويستكمل العباس والرسول ﷺ حوارهما مع الأنصار الذي يستمر قرابة ساعتين في حوار تاريخي، يجمع فيه الأنصار على مبايعة الرسول ﷺ على حمايته وفدائه والتضحية بالمال والنفس في سبيل الله.

وفي اليوم التالي.. يعد عبد الله بن عمرو بن حرام العدة للعودة إلى يثرب مع غيره من المسلمين.. وطوال الطريق كان عبد الله يسترجع ذلك الحديث الذي دار من يوم مضى، وهو ينظر تجاه يثرب وهو يدخلها للمرة الأولى مسلما.

وفي يثرب كان لعبد الله بن عمرو بن حرام.. شأن آخر.

لم يكن حديث عبد الله بن عمرو يوم العقبة حديثا متحمسا غير مدروس.. بل كان حديث رجل لا ينقصه العقل والخبرة ودراية الأمور والمخاطر..

ولقد كانت الأحداث بعد ذلك خير شاهد على ذلك..

حارب عبد الله في بدر.. ولم يمر عام بعدها حتى بدأ عبد الله ينفذ بنود البيعة..

لقد كان لديه شعور قوي أنه سينال الشهادة في أحد..

نعم كان على ثقة تشبه اليقين..

وعندها.. دعا ابنه جابر ليفضي إليه بما يشعر ويوصيه وهو يمد بصره قائلا:

- يا جابر..إني لا أراني إلا مقتولا في هذه الغزوة..

بل لعلي سأكون أول شهدائها من المسلمين..

وإني والله، لا أدع أحدا بعدي أحب إلي منك بعد رسول الله ﷺ..

وإن علي دينا، فاقض عني ديني، واستوص بإخوتك خيرا.

وفي اليوم التالي جاءت قريش بجيشها وكبريائها تنتقم لقتلى زعمائها في بدر..

ودارت رحى الحرب..وحقق المسلمون انتصارا باهرا في أول الأمر رغم الفارق الرهيب في العدد والعدة..

وعندما اقترب النصر من النهاية..نزل الرماة من على الجبل يحصدون الغنائم .

وكانت هذه هي نقطة التحول في المعركة..وانقلبت المعركة رأسا على عقب..

وسقط من المسلمين شهيد تلو الآخر..

وانتهت المعركة بعد أن صدم المسلمون صدمة نفسية كبيرة...

بعدها أخذ المسلمون يبحثون عن شهداء المعركة وما أكثرهم..

وأخذ جابر يبحث عن أبيه فلا يجده بين الأحياء..

فيخفض رأسه ليبحث عنه في أرض المعركة..

كان البحث مضنيا إلى حد كبير، فالكثير من أجساد الشهداء غير واضحة الملامح..

فلقد مثلت قريش بجثث كثير من شهداء المسلمين..

وكان عبد الله بن عمرو من هؤلاء..

أخيرا وجده ابنه جابر وقد شوه جسده وضاعت ملامحه.

ويبكي جابر وأمه بكاء شديدا.. فإذا برسول الله ﷺ يمر عليهم ويقول لهم في بشر:

«ابكوه..أو لا تبكوه..

فإن الملائكة لتظلله بأجنحتها».

كانت شهادة عظيمة من رسول الله ﷺ، وشرف ما بعده شرف لجابر وأهله أن تظلل الملائكة جسد أبيه..

ربما ساعتها يتحول الحزن إلى فرح.. والانكسار إلى عزة وشموخ..

ويحمل جابر مع أمه جثمان أبيه على ناقتهما متجهين به إلى المدينة لدفنه.. كما فعل غيرهم من المسلمين بجثمان ذويهم.. فإذا مناد ينادي بأن رسول الله ﷺ أمر بدفن الشهداء في أماكن مصرعهم..

وعاد الجميع بشهدائهم مرة أخرى.

ووقف النبي ﷺ يشرف على دفن الشهداء واحدا وحدا..

وعندما جاء دور عبد الله بن عمرو بن حرام .. نظر الرسول الكريم ﷺ إلى من يقومون بدفنه قائلا لهم في أسى:

«ادفنوا عبد الله بن عمرو، وعمرو بن الجموح في قبر واحد، فإنهما كانا في الدنيا متحابين، متصافين»..

ودفن عبد الله بن حرام.. ظليل الملائكة..

وعاد جابر إلى منزله ليجده خاليا من أبيه..فجلس يتذكر أيامه.. ويتذكر ما قاله له بالأمس من استشهاده في أحد..ووصيته بإخوته وقضاء دينه..

بعدها ظل المسلمون يذكرون جميعا حديثاخطيرا قاله الرسول ﷺ لابنه جابر عن أبيه.. حيث نظر إليه بابتسامة حانية وهو يقول:

«يا جابر.. ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب..

ولقد كلم أباك كفاحا-أي مواجهة-

فقال له: يا عبدي، سلني أعطك..

فقال: يا رب، أسألك أن تردني إلى الدنيا، لأقتل في سبيلك ثانية..

قال له الله عز وجل: إنه قد سبق القول مني: أنهم إليها لا يرجعون.

قال: يا رب، فأبلغ من ورائي بما أعطيتنا من نعمة..

فأنزل الله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٩]».

لا تحزن يا جابر بعد كلام رسول الله ﷺ عن أبيك..

لا تحزن..فمن يكون ظليلا للملائكة ثم يكلمه الله مواجهة بعد أن يرزق بالشهادة بعد أقل من ثلاث سنوات من إسلامه..لهو صادق أشد الصدق..

سلاما يا عبد الله...

سلاما يا من صدق الله.. فصدقه الله.

* * *

١ - المسلمون كانوا قادرين على التعايش مع غير المسلمين، ولم تنشأ مشكلات بسبب الخلاف في العقيدة (وفد الحجيج في بيعة العقبة الثانية كان يجمع المسلمين وغير المسلمين).

كانت قدرة المسلمين على التعايش مع المختلفين معهم في العقيدة هائلة، حدث ذلك بصورة مذهلة في أثناء حصار قريش لشعب بنى هاشم الذي استمر ثلاث سنوات كاملة دون أن تحدث أي مشكلة، حدث ذلك أيضا في رحلة الحج في بيعة العقبة الثانية.

هذا الفهم وهذه المرونة يحتاج إليهما المسلمون وغير المسلمين كثيرا اليوم، بعد أن زاد الاحتقان بين أصحاب العقائد المختلفة في البلد الواحد، وأصبح يشكل ألغاما من الممكن أن تنفجر في أية لحظة.

إن الإسلام لم يدع إلى محاربة العقائد الأخرى، وحتى لم يدع إلى دعوتها إذا كانت هذه الدعوة ستؤدي إلى حدوث فتنة طائفية تضر ولا تنفع، إن الإسلام يريد أن يعبر المسلمون عن أنفسهم بأخلاقيات الإسلام، فتصبح هذه أفضل دعوة للآخرين، ولا يدعوالى عدائهم إلا إذا قاموا هم بالاعتداء على المسلمين.

والعجب أن يتصور المسلمون أن محنتهم سببها عداء الآخرين لهم، والحقيقة أن المحنة تنبع من المسلمين أنفسهم.

نود أن نتعايش مع الآخرين في ود وسماحة، ونترك لهم حرية الاعتقاد فلا نذمهم ولا يذموننا، ونعيش معا كأبناء وطن واحد من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ولنعلم أننا في حاجة إلى أن ندعو أنفسنا نحن المسلمين للإسلام، قبل أن نفكر في دعوة الآخرين له ـ وهذا لا يمنع طبعا من قيام أدوار بالتعريف بالإسلام في الدول التي تأخذ هذا الأمر بصورة ليس فيها حساسية أو شبهة تؤدي إلى وقوع فتنة.

٢ - عالم الالتزام بالإسلام عالم جديد، من الممكن أن يبهر من يدخله أو يصيبه بالخوف (عبد الله ابن حرام يكتشف عالما جديدا بعد رؤيته لما يحدث في مؤتمر العقبة).

الشخص الذي يلتزم بالإسلام يشعر بأنه قد دخل عالما جديدا، ولذا فإنه يبدأ مبهورا به متحمسا لأن يعدو في أرضه بأقصى سرعة، هذا الانبهار بالعالم الجديد وحبه أمر جميل، ولكن ينصح بدخوله برفق، ودراسة كيفية التعامل مع المجتمع (الأسرة والأصدقاء والجيران.إلخ) يقول النبي ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق».

وأرى أنه في حالة عبد الله بن حرام، كان أمر دخوله استثنائيا، فليس من الطبيعى أن يدخل أحد الإسلام فيجد نفسه داخل مؤتمر سري خطير، حياته مهددة فيه، ثم يستوعب الأمر بسرعة ولا

يتخوف من الأمر بل يبادر بنصرة الرسول ﷺ.

لقد ساعدت زعامة عبد الله بن حرام على التعامل مع الموقف، ولكنه موقف خاص من الصعب تعميمه على من يبدأ طريق الالتزام أن ينقى نفسه أولا من خبثها، ويبدأ في فهم الإسلام ودراسته دراسة متأنية، ولا يتسرع في الحكم على الناس واتخاذ مواقف معينة تؤدي إلى عداوة من حوله.

٣- عبد الله بن حرام بادر بنصرة الرسول ﷺ فى بيعة العقبة الثانية، فكافأه الله بأن ظللته الملائكة بعد استشهاده (عبد الله بن حرام تظلله الملائكة بعد استشهاده) .

دائما من يبادر - بالخير أوالشر- يكون متفردا في الجزاء أوالعقاب.. وكما كان أبو لهب متفردا في عقابه؛ لأنه أول من عادى الرسول ﷺ، كان عبد الله بن حرام متفردا في ثوابه؛ لأنه كان من أوائل المبادرين بنصرة الرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية.

وكانت المبادرة هنا في موقف صعب مهيب، وكانت بطولة من ابن حرام أن يبادر بالنصرة وهو حديث الإسلام.

إن المواقف الصعبة تكشف الرجال، وابن حرام أثبت أنه رجل محب لله ولرسوله ﷺ، منذ بيعة العقبة وحتى استشهاده، فأكرمه الله بظل الملائكة له ليصبح.. ظليل الملائكة.

٤- الإسلام يقدر قيمة الأخوة والحب في الله (الرسول ﷺ يأمر بدفن عبد الله بن حرام وعمرو ابن الجموح في قبر واحد).

يحرص الإسلام على قيمة الأخوة في الله، ويدعوالرسول ﷺ إليها في أحاديث كثيرة ليعلى من شأن المحبة بين المسلمين والتراحم وتفضيل الغير على النفس، وهى قيم افتقر إليها المجتمع في عصر طغت فيه المادة لتكتسح في وجهها كل القيم الروحية الجميلة التي تقرب أبناء المجتمع من بعضهم وتدعوهم إلى التماسك والتكافل فيما بينهم.

ومن العجب أن عبد الله بن حرام ظلل مرتين.. مرة يوم استشهاده، ومرة أخرى يوم يبعث يوم القيامة، مصداقا لقول النبي ﷺ:

«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...» منهم:«أخوان تحابا في الله فتجمعا عليه وتفرقا عليه».

إن قيمة الأخوة في الله قيمة لا تعرف الحب من أجل المصلحة الشخصية، إنما تعرف الحب والأخوة من أجل إرضاء الله.. إنها القيمة التي تبني المجتمع وتقويه وتحميه من أي خطر..إنها القيمة التي نحتاج إليها كل يوم.

* * *